



◆ الرحلات عبر البحر الأبيض المتوسط في العصور القديمة

د. خديجة منصوري

ملخص:

يعرض المقال خصائص البحر الأبيض المتوسط ومزاياه في مجال الملاحة البحرية، وكذا معرفة الشعوب الملاحة له بما يتوفر عليه من منافع كطريق مواصلات بين مختلف الأمم المتوسطية منذ فجر التاريخ ومنهم الكرتيون والفنيقيون المكتشفون الحقيقيون للبحر المتوسط والأكثر استفادة من الإبحار فيه. ويخلص المقال إلى رصد بعض النتائج المحققة في مجال الرحلات البحرية.

Résumé:

Cet article expose les caractéristiques de la mer méditerranéenne et son importance dans la marine, ainsi que les avantages dont elle disposait dès l'aube de l'histoire, et qui ont aidé à l'exploration des peuples riverains de la Méditerranée tels que les Crètes et les Phéniciens, qui demeurent les réels explorateurs de la Méditerranée et les grands bénéficiaires d'y naviguer.

Cet article aboutit enfin à enregistrer un nombre de réalisations dans les voyages maritimes.



مقدمة:

يصف ثلوتز "G. Glotz" (1) البحر الأبيض المتوسط أنه أجمل البحار وأكثرها جاذبية ومنفعة. وفعلا فهو يحتكم على جملة من العوامل تشجع على الملاحة كإنعدام الحواجز وندرة التيارات القوية وتناوب الهواء البري والبحري، مما يسمح بتقدم السفن التي تبحر قرب الساحل حتى وإن كانت الرياح لا تساعد على الملاحة، كما تكثر به ولا سيما بحوضه الشرقي المواني والجزر والشناخ التي هي بمثابة نقاط استدلال، زيادة على أنه كان بإمكان البحارة عبوره دون إضالة الطريق، ودون الاستعانة بالبوصلية والسدسية نظرا لكثرة نقاط الاستدلال المتكررة التي تظهر كل خمسين ميلا أو أكثر(2).

كان البحر الأبيض المتوسط بفضل الخصائص التي يتميز بها أول مدرسة للملاحة البحرية في القديم. ورغم كثرة الرحلات البحرية التي كان مسرحا لها إلا أنه لا يزال يجهل الكثير عنها، أما تلك التي وصلتنا أخبارها فهي لم تصلنا من خلال كتابات الرحالة الذين قاموا بها وإنما من خلال المقتطفات المبعثرة في صفحات المصادر الإغريقية والرومانية، مما جعل المعلومات التي وصلتنا غامضة وأحيانا غير موضوعية. وقد نجد تبريرا لهذا الغموض في تصرفات الملاحين والتجار الفينيقيين والقرطاجيين، هؤلاء الذين لم يكشفوا عن الطرق البحرية التي اكتشفوها، بل وسهروا على أن تبقى علاقاتهم التجارية مع الشعوب المختلفة والمستوطنات التي أسسوها سرا أطول وقت ممكن، زيادة على القصص الخيالية التي اخترعوها حول المخاطر التي واجهتهم في رحلاتهم البحرية(3).

إذا كان البحر الأبيض المتوسط أحيانا مجرد محطة عبور لبعض الرحلات والاستكشافات البحرية، فهو من جهة أخرى كان مسرحا رئيسيا للعديد من الرحلات البحرية، وهذا ما سنحاول تسليط الضوء عليه.



أولا: الرحلات البحرية الإيجية

ما أن نفكر في معالجة موضوع الرحلات البحرية الإيجية حتى يتبادر إلى أذهاننا كتاب الأوديسا "l'Odyssée" لهوميروس "Homérus"، لما يحتفظ به من أخبار حول بعض الرحلات القديمة، صحيح أن هوميروس لم يجمع معلومات هامة حول توپوغرافية البحر الأبيض المتوسط، وتبقى قبرص وفينيقيا ومصر وبلاد المشرق بالنسبة له مجرد أسماء، كما أن مسرح مغامرات عليس "Ulysse" بالمياه الغربية للبحر الأبيض المتوسط لا ينطبق على أي إطار جغرافي رغم محاولات التعرف عليه، ورغم ذلك فإن بعض صفحات كتابه تتضمن معلومات حقيقية ذكره لنبات اللوتيس "lotus" الذي ينتجه ساحل مقاطعة طرابلس(4)، وإعصار مضيق مسينا الذي يجسد الأعاصير الناجمة عن الجاذبية المماسية للتيارات، ووصفه لرياح وتيارات البحر الأبيض المتوسط، كل هذه الحقائق حول الحياة البحرية توحى أنه اعتمد على مصدر للملاحة البحرية، قد يكون حسب بيرار "V. Bérard" (5) كتابا للملاحة البحرية الفينيقية. لكن هل من الضروري أن يكون المصدر فينيقيا لا سيما وأنه لا يوجد ما يثبت أن الفينيقيين ألفوا دليلا رسميا للملاحة منذ عهد هوميروس، وحتى وإن وجد فلا يستبعد أن يكونوا قد أبقوه سرا. ألا يمكن أن تكون روايات البحارة الإيجيين مصدرا لهوميروس، لا سيما وأنه يعرف جيدا المنطقة المجاورة لمضيق سينا حيث تردد الملاحون الكريتيون، مما يجعل الأوديسا دليلا على عدم اندثار التقاليد البحرية الكريتية التي كانت في انتظار الإغريق لإحيائها(6).

يحتفظ الإغريق بقصة تروي أن سيدا من كنوسوس بجزيرة كريت اسمه مينوس "Minos" كان يمارس سيادة مطلقة على البحار قبل حرب طرواده(7)، هذه القصة التي تحقق علماء الآثار من صحتها، بحيث كشفت الحفريات التي قام بها بعض الأثريين بالعديد من المواقع الأثرية الإيجية، وتلك التي قام بها أرثر إيفانس "Arthur Evans" بكنوسوس عن حضارة كريتية تعود إلى ثلاثة آلاف سنة ق.م، قامت أساسا على المبادلات التجارية البحرية التي كانت معظمها إن لم تكن كلها بيد الملاحين الإيجيين. هذا وقد خلف الكريتيون بقايا مادية تدل على رحلاتهم البحرية بالمياه الأجنبية، وعلى



العلاقات التي وجدت بين كريت ومصر. وفي هذا الصدد توحى الكمية الكبيرة من الفخار الكريتي التي وجدت بالمداخن المصرية للأسرتين الثانية عشر والسابعة عشر أن الكريتين أصبحوا في حوالي سنة 2000 ق.م ممونا نشيطا في هذا المجال(8). ويفترض أن السفن الكريتيّة أبحرت نحو مصر في الرحلات البحرية الأولى من ميناء بالساحل الجنوبي يتصل بكنوسوس ثم إلى ساحل الشمال الإفريقي ومن ثم إلى دلتا النيل(9)، أما الطريق الثاني الذي يمر بين قبرص وفينيقيا لم يسلكه الكريتيون قبل سنة 2000 ق.م(10). إذن يمكن أن ننسب للكريتيين أول رحلة استكشافية بحرية لبلاد المشرق قبل سنة 2000 ق.م فهل كان لهم نشاط مماثل بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط؟

يمكننا الإجابة على هذا السؤال استنادا إلى المعطيات التي تفيدنا بها الأساطير الإغريقية المتضمنة لبعض الحقائق التاريخية ثبتت صحتها. فهي تحتفظ بذكرات علاقات قديمة وجدت بين الإيجيين في فترة حرب طرواده وإيطاليا التي كانت تعيش آنذاك عصر البرونز، وتربط بين الملك مينوس وصقلية(11)، أكدها علماء الآثار بعد أن تم العثور على كميات كبيرة من الفخار الكريتي بجزيرة صقلية وجنوب إيطاليا تنسب للفترة الممتدة من سنة 1400-1200 ق.م(12) ومجموعة كبيرة من القطع الخزفية المكيئية(13). ولعل ما تجدر الإشارة إليه بخصوص هذه الرحلات عدم حصر الإيجيين لنشاطهم البحري في بحر إيجا، بحيث وسعوه ليشمل كل البحر الأبيض المتوسط، فلقد أبحروا من خليج إلى خليج ومن جزيرة لأخرى، مما جعلهم أصحاب السيادة البحرية بلا منازع إلى غاية مطلع الألفية الأولى ق.م، ففي هذا التاريخ تتعطل الملاحة البحرية الإيجية بسبب الهجرات البشرية للأخيين والأيونيين والدوريين، مما أتاح الفرصة للفينيقيين لمواصلة مهمة استكشاف البحر الأبيض المتوسط.

ثانيا: الرحلات البحرية الفينيقية-القرطاجية

كثيرة هي النصوص القديمة التي تنوه بالرحلات الفينيقية، وتتمثل أقدم وثيقة نحتكم عليها حول هذا الموضوع في لوحة جدارية مصرية يعود تاريخها إلى حوالي سنة 1475

ق.م. تظهر عليها سفينة يقودها بحارة ساميون، وورقة بردى لحوالى سنة 1200 ق.م مما جاء فيها أن الفينيقيين سيطروا آنذاك على النشاط التجاري ببلاد المشرق(14). وكان هذا بعد الرحلات البحرية المتكررة التي قاموا بها في اتجاه مصر عبر طريق بحري يمتد على طول الساحل الفينيقي إلى غاية دلتا النيل، وتأسيس محطة تجارية عرفت لدى المصريين القدامى بمعسكر الصوريين(15).

لعل أهم رحلة بحرية فينيقية بالحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط في هذه المرحلة المبكرة، تلك التي قاموا بها في مطلع الألفية الأولى ق.م على متن سفن الملك سليمان ملك العبرانيين وحيرام ملك صور من فينيقيا إلى أوفير (Ophir) مروراً بمصر. ففي هذا السياق يفيدنا الكتاب الأول للملك(16) بمعلومات مفادها قيام الفينيقيين برحلة بحرية دامت ثلاث سنوات على متن سفن تارشيش (Tarshish) لجلب الذهب وخشب الصندل من أوفير، هذه الأخيرة التي ربما هي نفسها بلاد البونت الواقعة إما بالقرن الإفريقي برأس قارذاقوي بالصومال أو بالساحل الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية أو قد يشمل إطارها الجغرافي كل من الصومال والساحل الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية(17). ولو نتعمق في النص نجد أنه لا يمكننا موافقة الباحثين الذين يعتقدون أن تارشيش الواردة في التوراة يقصد بها تارتسوس (Tartessos) المتمثلة في المنطقة الواقعة بوادي قادالكفير(18) بإسبانيا والذي يمر بقرطبة وإشبيلية ليصل إلى المحيط الأطلسي، خاصة وأن النص يحدد بدقة اتجاه السفن ألا وهو بلاد أوفير، ومن جهة أخرى أن تارشيش كلمة سامية معناها المعادن، وبالتالي يصبح مفهوم العبارة الواردة في النص: السفن المخصصة لنقل المعادن(19)، ولا يقصد بها البلاد التي ستتجه إليها، كما أن تارتسوس اشتهرت في القديم بمناجم الفضة والنحاس والقصدير وليس الذهب وخشب الصندل الذي جلبه الفينيقيون في هذه الرحلة.

يواصل الفينيقيون رحلاتهم البحرية بحثاً عن المعادن والأسواق لتصريف البضائع المحملة على سفنهم وشراء سلع أخرى. وإذا ما يرجع هوميروس ظهورهم بالمواني الإغريقية إلى حوالى سنة 1190 ق.م مباشرة بعد حرب طرواده(20)، فإنه في الواقع



ينسب أحداثا وقعت في عهده حوالي سنة 800 ق.م إلى فترة حرب طرواده، ونادرا ما يمكن تأكيد وجود محطات تجارية فينيقية بالحوض الشرقي للبحر الأبيض المتوسط في القرن الحادي عشر(21). أما بخصوص الاتجاه الذي سلكوه، فلقد اتجهوا في البداية نحو جزر وسواحل الحوض، ووصلوا إلى كيليكييا وحدود الأناضول(22)، وقبرص حيث الثروات المعدنية والزراعية التي كانت وراء ظهور المحطات التجارية الفينيقية المبكرة بكل من كيتيون (Kition) وأماثونت (Amathonte) وربما تاماسوس (Tamassos)، دون أن ننسى جزيرة رودس حيث تواجد ملاحو صيدا منذ القرن العاشر ق.م، كما يفترض وصولهم إلى سواحل لاكونيا باليلوبونيز وجزيرة كريت وجزيرة كيتير (Cythère) بالبحر الإيجي(23)، ووصلوا إلى مالطا التي استعمروها على حد قول الصقلي(24) حين وسعوا نشاطهم التجاري نحو الغرب باعتبارها ملجأ جيدا وسط البحر تتوفر فيه موانئ جيدة.

أما رحلاتهم بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط فهي كثيرة ومتكررة، قاموا ببعضها تحت إشراف السلطات الفينيقية وأخرى تحت إشراف السلطات المصرية، مما جعل هذه الأخيرة تنسبها لنفسها. ولعل هذا ما يفسر ما جاء في كتاب سترابون(25) حين يقول أن بعض الفراعنة أمثال تاهاركا (689-683 ق.م) وصلوا في توسعاتهم حتى أعمدة هرقل أي مضيق جبل طارق، هذه التوسعات التي ما هي في الحقيقة سوى الرحلات البحرية التي قام بها الفينيقيون تحت الراية المصرية. لكن هذه الأخيرة ليست هي الأولى التي قاموا بها بهذا الحوض، بل سبقتها رحلات بحرية أخرى أسسوا خلالها محطات تجارية بإسبانيا. ومن بين النصوص التي تسلط الضوء على هذا الموضوع نص نقله سترابون(26) عن بوسيدونيوس يذكر فيه أن الإله أمر الصوريين بتأسيس محطة تجارية عند أعمدة هرقل، ولتحقيق ذلك خرجت حملة تبحث عن المكان، ولما وصلت إلى مضيق جبل طارق توقفت وأسس البحارة محطة تجارية بسكسي، ثم قدموا القرايين للإله وعادوا إلى صور، تلتها حملتين توجت الثالثة بتأسيس قادس (Gades).

يتضح مما تقدم أن الفينيقيين وصلوا إلى الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، ولا ريب أن ذلك حدث في وقت مبكر، بحيث يرجع الجغرافيون والكتاب الإغريق والرومان(27)

رحلاتهم البحرية الأولى بهذا الحوض إلى مطلع القرن الثاني عشر اكتشفوا خلالها مضيق جبل طارق، وأسسوا قادس بإسبانيا سنة 1110 ق.م وربما في نفس السنة أو قبلها بقليل ليكسوس (العرائش) بالمغرب الأقصى، وقبلها أوتيكا (Utica) بتونس سنة 1101 ق.م كما أن هذه الرحلة حققت لهم ثروة طائلة، بحيث كانوا يجمعون بقادس الفضة المستخرجة من تارتيسوس (Tartessos) بإسبانيا والقصدير الذي يجلبه البحارة التارتيسيون من جزر كاسيتيريد (Cassitérides) ببريطانيا (28)، ويخزنون بليكسوس ذهب السودان الذي تجلبه سفنهم من قرنة (Cerné) (29).

زيادة على ذلك أسسوا خلال هذه الرحلات سلسلة من المحطات التجارية بإسبانيا نذكر من بينها مالاغا (Malaga) وأبديرا (Abdera) وباريا (Baria)، ووصلوا إلى سردينيا حيث أسسوا بجهتها الجنوبية محطات بكل من نورة (Nora) وكاراليس (Caralis) وسولكيس (Sulcis) وبيثيا (Bithia) (30). ومما تجدر الإشارة إليه بخصوص تاريخ اكتشاف الفينيقيين لسردينيا أن ذلك حدث حسب بعض المؤرخين (31) في حوالي نهاية الألف الثاني ق.م حين أرغم التجار الفينيقيون إثر ظهور زوبعة بحرية على النزول بالشواطئ الجنوبية الغربية للجزيرة، غير أن هذا الرأي لا يستند على دعائم متينة ولا يتفق مع الشواهد المادية، لا سيما النقيشة الفينيقية التي عثر عليها بنورة والتي ترجع ذلك إلى القرن التاسع ق.م (32).

قد تكون صقلية آخر محطة حظيت باهتمام الفينيقيين بالبحر الأبيض المتوسط، هذا الاهتمام الذي تولد نتيجة سببين لا تقل أهمية أحدهما عن الثاني، ألا وهما موقعها الإستراتيجي وسط هذا البحر مما يسهل ربط حوضه الشرقي بالغربي حيث تنتشر المحطات التجارية والمستوطنات الفينيقية، وتوفر إمكانات التعامل التجاري مع سكانها. فحسب تيوسيديدس (33) (Thucydides) وصل الفينيقيون إلى الجزيرة وأسسوا محطاتهم ببعض المواقع الساحلية قبل وصول الإغريق إليها، وهذا ما تؤكد التنقيبات الأثرية التي كشفت عن بقايا فخارية فينيقية بمقابر موتية (Motya) تنسب للقرن الثامن ق.م (34)،



وهذا يعني من جهة أخرى أن ما يعرف بالمستوطنات الفينيقية التي وجدت بصقلية تنسب فعلا للفينيقين الذين قدموا مباشرة من فينيقيا وليس للقرطاجيين. ومما يلفت انتباه المهتم بهذا الموضوع ذلك التقسيم الذي خضعت له جزيرة صقلية، فبوسطها وقسمها الشرقي تتمركز المستوطنات الإغريقية من بينها أغريغنتي (Agrigente) وسراقوسة (Syracuse)، في حين تنتشر المحطات الفينيقية بالساحل الغربي بكل من موتية ولبليبايوم (Lilybaeum) واريكس (Eryx) وباليرم (Panormos) وسولونت (Soloeis) (35).

أما فيما يتعلق بالنشاط الفينيقي بسواحل بلاد المغرب القديم (تونس، الجزائر، المغرب الأقصى) المعروفة لدى الكتاب القدامى بليبيا، يذكر ديودور الصقلي (36) أن الفينيقين قاموا برحلات بحرية متكررة بهدف التجارة، وأسسوا مستوطنات عددا كبيرا منها على السواحل الليبية وأخرى بالجهات الغربية لأوروبا. وإذا كنا نتفق مع هذا الكاتب حول الرحلات البحرية الفينيقية ونشاطهم التجاري، وحول المحطات التجارية التي أسسوها بالجهات الغربية لأوروبا والتي تحولت بمرور الزمن إلى مستوطنات، فإننا نفتقد المعطيات المادية التي تثبت فعلا تأسيس الفينيقين القادمين مباشرة من فينيقيا لمستوطنات بسواحل بلاد المغرب القديم باستثناء مستوطنات أوتيكا وليكسوس وقرطاجة، وكل ما يفترض أنهم قاموا مرافئ صغيرة لكي ترسو بها سفنهم ويتسنى لهم المتاجرة مع السكان الأصليين، كانت بمثابة النواة الأولى لظهور المستوطنات القرطاجية. ومما يدعم هذه الفرضية انعدام البقايا الأثرية الفينيقية، إذ تنسب أقدم الآثار التي وجدت بهذه المستوطنات إلى القرن السادس ق.م حين أصبحت مستوطنة قرطاجة تتزعم السيادة البحرية والسياسية بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط بعد انهيار مملكة صور الدولة الأم.

وفعلا ما أن برزت القوة العسكرية لقرطاجة وانتصرت على الفونسيين سكان إحدى المدن اليونانية بشواطئ أسيا الصغرى بمعركة أاليا (Alalia) بكورسيكا سنة 535 ق.م (37)، حتى حلت محل صور على رأس المستوطنات الفينيقية بالحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، واستأنفت الرحلات التي كان قد بدأها الصوريون منذ القرن الثاني



عشر ق.م وراء مضيق جبل طارق لكن هذه المرة لصالحها الخاص. كما أنها لم تكتف بالإرث الذي ورثته عن الصوريين، بل حرصت على توسيعه مثلما توجي إليه رحلتي حملكون "Himilcon" وحانون "Hannon" بالمحيط الأطلسي. أما الرحلة الأولى فلقد قام بها القائد حملكون في حوالي 500 ق.م انطلاقاً من قرطاجة في اتجاه قادس للالتفاف حول شواطئ إسبانيا مبحراً نحو الشمال، استغرقت أربعة أشهر قضاها على طول الطريق التجاري البحري القديم للتارتيسيين، صادف خلالها أرصفة من الطحلب والرمل وضباب كثيف، ووصل بعد الصعوبات التي واجهها إلى بريطانيا (38)، مما سمح للقرطاجيين بمراقبة طرق تجارة القصدير وهذا إلى غاية بريطانيا.

رغم النجاح الذي حققته هذه الرحلة، فهي لم تحقق طموحات القرطاجيين بدليل أنهم قاموا بعد ذلك برحلات أخرى مكنتهم من اكتشاف طريق مباشر يؤدي إلى مناجم القصدير انطلاقاً من كورونة (Corogne) في اتجاه الشمال إنما نحو جزر كاسيتريد (39) (Cassitérides) التي يعتقد أنها جزر سيللي (Scilly) أو ربما نحو أراضي كورنواي (40) (Cornouailles). هذا وقد أسندت إلى حانون مهمة تأسيس مستوطنات بالمنطقة الواقعة خلف أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق)، بحيث قام قبل سنة 480 ق.م برحلة بحرية على السواحل الغربية لإفريقيا أسس خلالها مهدية (Thymiaterium) والسويرة (Mogador) وأقادير (Gutta Akra) ومليته (Melitta) وأرامبيس (Arambys) ومستوطنة وادي الذهب وقرنة (Cerné)، والظاهر أنه وصل حتى سيراليون (41)، مما أدى إلى ظهور تجارة الذهب التي مارسها القرطاجيون (42) حتى سقوط الدولة القرطاجية سنة 146 ق.م.

هذا وتحولت المرافئ التجارية الفينيقية الممتدة من خليج السيرت إلى مضيق جبل طارق إلى مستوطنات قرطاجية، وأصبحت قرطاجة تراقب مضيق جبل طارق وكل المستوطنات المنتشرة على السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية لإسبانيا، وسردينيا والساحل الغربي لصقلية، وجزر الباليار حيث أسسوا مستوطنة إبيزا (43) (Ebusus) حوالي سنة 654-653 ق.م، كما فرضت تواجدها بكورسيكا بعد الهزيمة التي ألحقتها



بالفوسيين خلال المعركة البحرية (44) التي دارت بينهما سنة 535 ق.م غير أنها لم تحقق نجاحا كبيرا بإيطاليا، ولم تتردد على سواحلها إلا في القرن الخامس ق.م نظرا لخضوعها لمراقبة الإيتروسك، هؤلاء الذين ربما لم يسمحوا حتى للإغريق بالتوغل خلف نابولي (45).

ثالثا: الرحلات البحرية الإغريقية

شرع الإغريق في خوض غمار البحار في حوالي سنة 800 ق.م، حين اضطروا تحت ضغط الظروف الاقتصادية الصعبة إلى الخروج في رحلاتهم البحرية الأولى بحثا عن الأسواق والطرق التجارية، وسعيا وراء تأسيس مستوطنات تدر عليهم أرباحا طائلة. ومما تجدر الإشارة إليه أن الرحلات البحرية الاستكشافية الإغريقية الأولى هي عبارة عن مبادرات فردية قام بها التجار والصيادين والقراصنة إما بالاعتماد على القصص التي تروي أخبار الرحلات الكريتية، أو بعد اكتشافهم لإحدى الطرق البحرية الفينيقية، أو بعد أن دفعتهم الرياح أو التيارات البحرية نحو أراضي غنية بالثروات الزراعية أو المعدنية.

وصل الإغريق في رحلاتهم البحرية الأولى إلى إيطاليا حيث أسس الشلسيديون سكان شلسيدس إحدى الجزر الإغريقية أقدم المستوطنات بكل من جزيرة إيشيا (Pithecosa) عند مدخل خليج نابولي وكومس (Cumae) بكامبانيا (46)، هذه الأخيرة التي يعود تأسيسها حسب القطع الفخارية التي وجدت بها إلى حوالي سنة 800 ق.م (47). كما وصلوا إلى جزيرة الألب وتوسكانا (Etruria) حيث مناجم النحاس والقصدير ومراكز إنتاج البرونز، وأسسوا بعد سنة 740 ق.م مستوطنة رخيون (Rhegion) (48)، هذا زيادة على تلك التي أسسوها بإيطاليا الجنوبية كمستوطنة سيباريس (Sybaris) وكالابرو (Crotona) وتارنت (Tarente) ولوكريس (Locres) (49). وبدون الابتعاد عن إيطاليا يكتف الشلسيديون جهودهم ويصلون إلى صقلية حيث يؤسسون مجموعة من المستوطنات بكل من مسينا (Zancle) بعد سنة 740 ق.م وناكسوس (Naxos) حوالي سنة 757 ق.م



وليونتينو (Leontinoi) وكاتان (Catane) سنة 728 ق.م، وميغارة (Megara) حوالي سنة 750 ق.م. كما يؤسس الدوريون مستوطنة سراقوسة سنة 733 ق.م وجيلا سنة 689 ق.م وأغريغانتى سنة 580 ق.م، مما مكنهم من مراقبة النشاط التجاري الذي يتم بمضيق صقلية وإخضاع معظم الواردات الإغريقية لمؤسساتهم الجمركية (50).

سبق وذكرنا أن الفينيقيين اكتشفوا مضيق جبل طارق في القرن الثاني عشر، ورغم ذلك لم يصله الإغريق إلا في حوالي سنة 630 ق.م. ونحتكم في هذا الصدد على نص لهيرودوت (51) يتجلى من خلاله أن تاجرا من جزيرة ساموس اسمه كولايوس (Coleos) اكتشفه صدفة حين كان يريد الإبحار من بومبا (Platéa) نحو مصر، وعوضا أن يصل إلى هدفه دفعته الرياح الشرقية غربا فاجتاز مضيق جبل طارق وحط بتارتيسوس، ثم عاد إلى ساموس محملا بالفضة التي جمعها من تارتيسوس. وكان من الطبيعي أن تلفت الثروة التي جلبها معه انتباه المغامرين، وتدفعهم إلى الخروج بحثا عن المناطق التي تزخر بمثل هذه المعادن، ومن ثم توالى الرحلات البحرية الإغريقية نحو إسبانيا، والفضل الكبير في هذا يعود إلى مدينة فوسي (Phocée) إحدى المدن اليونانية على شواطئ آسيا الصغرى التي نظمت حملات جماعية وضعت خلالها تحت تصرف البحارة سفن حربية عوض السفن التجارية، مما سمح للبحارة الفوسيين بإيجاد طريق تجاري بحري يمتد إما من صقلية أو من الخليج الصغير بنابولي عبر جزر الباليار مباشرة نحو إيفاش (Ifach) بالساحل الجنوبي الشرقي لإسبانيا، ووصلوا إلى مناكي (Maenaké) شرق مستوطنة مالقا، وهي أبعد مستوطنة فوسية بإسبانيا (52).

شرع الفوسيون بعد تعرفهم على الطريق المؤدي إلى تارتيسوس في استكشاف خليج الأسد إما إبحارا بالسواحل الإيطالية أو مرورا بسردينيا وكورسيكا، وأسسوا مستوطنة مارسيليا (Massalia) حوالي سنة 600 ق.م (53)، هذا التاريخ الذي تدعمه التنقيبات الأثرية، إذ تدلنا على انفتاح السوق المارسيلى في مطلع القرن السادس ق.م، ولا سيما ابتداء من سنة 580 ق.م أمام الخزف الأيوني (54). لكن يفترض أن الإغريق الروديسيين



سبقوا الفوسيين إلى إسبانيا وغاليا، وأسسوا مستوطنات رودي (Rosas) بكاتالونيا، وربما أيضا أقدي (Agathé) وروادانوزيا (Rhodanousia) على ضفاف نهر الرون(55). أما فيما يتعلق بنشاطهم بالضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، فلقد أبحرت السفن الإغريقية من البيلوبونيز في اتجاه الشمال الإفريقي، ووصلوا إلى بومبا حيث أسسوا مستوطنة ساعدتهم على المتاجرة مع قبيلة الأسبيت (Asbytes)، ولما سمح لهم السكان الأصليون بالنزول بالقارة فضلوا الاستقرار بالهضبة المجاورة للساحل وأسسوا مستوطنة كيران (Cyrène) حوالي سنة 631 ق.م(56).

رابعا: رحلات بحرية أخرى

تحتفظ المصادر بأخبار رحلات بحرية أخرى عرفها البحر الأبيض المتوسط في القديم، لكنه هذه المرة لم يكن مسرحا رئيسيا لها بل كان مجرد محطة عبور، اخترنا منها ثلاث رحلات سنحاول الإشارة إليها باختصار طالما أن كل الذي يربطها بموضوعنا هو مرورها بالبحر الأبيض المتوسط.

1. رحلة الفرعون نيخاو

في عهد الفرعون نيخاو (609-594 ق.م)، ويأمر منه قام بحارة فينيقيون برحلة بحرية حول القارة الإفريقية انطلاقا من الشرق نحو الغرب تعد الأولى من نوعها، استغرقت ثلاث سنوات توقفوا خلالها أكثر من مرة لزرع وجني المحصول لسد حاجياتهم. فلقد انطلقوا من البحر الأحمر، وأبحروا بمياه المحيط الهندي بمقاربة سواحل إفريقيا الشرقية، ثم بمياه المحيط الأطلسي بمقاربة سواحل إفريقيا الغربية، وبعدها دخلوا البحر الأبيض المتوسط عبر مضيق جبل طارق ليواصلوا الإبحار حتى مصر(57).

لا نريد الدخول في تفاصيل هذه الرحلة ولا مناقشة الشكوك التي أبداها المؤرخون(58) حول إنجازها كلها أو على الأقل جزء منها طالما أن كل ما يهمنا هو مرور



البجارة بالبحر الأبيض المتوسط، ونكتفى بالقول أن التجربة التي قام بها الباحث أندري جيل أرتانيان "André Gil-Artagnan" تشجع على تقبل فكرة إنجازها. فلقد حاول هذا الباحث تتبع خطوات البحارة الفينيقيين استناداً إلى المعلومات الواردة في كتاب هيرودوت، وقام برحلة بحرية حول القارة الإفريقية (59) دامت ثلاث سنوات على متن سفينة بناها وفق نموذج سفينة مصرية منحوتة بالمعبد الجنائزي للملكة حاشبسوت تعود إلى حوالي 1500 ق.م. نظراً لعدم عثوره على نموذج سفن فترة الفرعون نىخاو. وكانت انطلاقته من البحر الأحمر نحو خليج عدن في اتجاه رأس قارداقوي بالقرن الإفريقي، ثم اتجه نحو مومباسا وبعدها إلى رأس الرجاء الصالح، وأبحر بعد ذلك بمحاذاة السواحل الصحراوية إلى دكار ثم نواديبيو وبعدها إلى أقادير، ثم اجتاز مضيق جبل طارق ودخل البحر الأبيض المتوسط ليتجه صوب مصر.

2. رحلة ساتاسبيس "Sataspès"

حاول الفارسي ساتاسبيس أحد أفراد العائلة الملكية الفارسية القيام في عهد سرخس (465-485 ق.م) برحلة بحرية حول إفريقيا انطلاقاً من أعمدة هرقل في اتجاه الخليج العربي لكنه لم يكملها ورجع إلى بلاده، وكان هذا بعد إبحاره من مصر واجتياز أعمدة هرقل ورأس صولويس (Soleis) أي رأس سبارتل أو رأس كانتان، ثم مواصلة طريقه في اتجاه الجنوب حتى وصل بعد بضعة أشهر من الإبحار إلى ساحل به جبال (60)، تذكر بجبال كوناكري وسيراليون (61).

3. رحلة أودوكسوس (62) "Eudoxus"

قام أودوكسوس بموجب اتفاق عقده مع العائلة الملكية بمصر برحلتين إلى الهند، كانت الأولى في عهد الملك بطليموس السابع (146-117 ق.م)، والثانية في عهد أرملة هذا



الأخير الملكة كليوبترة والملك بطليموس سوتر الثاني، لكن في كل مرة كان الملك يجرده من الثروة التي يجلبها معه، مما دفعه إلى القيام برحلة ثالثة إلى الهند، لكن هذه المرة ليس عبر البحر الأحمر وإنما بالإبحار حول قارة إفريقيا مروراً بالبحر الأبيض المتوسط حتى لا يعلم ملوك مصر بذلك. فلقد أبحر من موطنه مدينة سيزيك، وتوقف ببوتولي (Dicaerchia) بإيطاليا ومارساليا (Massalia)، وبالعديد من الموانئ الإسبانية إلى أن وصل إلى قانس ليبجر بعد ذلك في اتجاه الجنوب، والظاهر أن أقصى منطقة وصلها هي جنوب المغرب حيث مملكة بوخوس، وهناك تخلى عن فكرة مواصلة الرحلة، وحاول الرجوع إلى بلاده، لكن دون جدوى حيث لقي حتفه مع كل الذين كانوا معه.

خامساً: نتائج الرحلات

حققت هذه الرحلات جملة من النتائج، معظمها ذات طابع مادي تتماشى والأهداف التي سطرته الشعوب التي قامت بها، وأخرى علمية، نلخصها في الآتي:

1 - إضافة معلومات جغرافية جديدة حول المناطق التي تم اكتشافها. كما ساعدت هذه الرحلات على وضع دليل بحري يتضمن وصفاً شاملاً لسواحل البحر الأبيض المتوسط وموانئه والمسافات الفاصلة بينها، والمخاطر التي يواجهها البحارة كالتيارات والرياح البحرية، اعتمد عليها الجغرافيون القدامى في مؤلفاتهم التي وصلتنا.

2 - مساهمة البحارة الفينيقيين في نشر الكتابة الفينيقية في الأوساط الإغريقية في القرن التاسع ق.م، ومن ثم طورها الإغريق: فأضافوا إشارات لحروف العلة وضاعفوا الحرف بدل التشديد، وحرفوا الإشارات حتى توافقت الأسماء الإغريقية، وأسقطوا أصواتاً لا وجود لها في اللغة اليونانية، وأوجدوا إشارات لأصوات غير موجودة في اللغات السامية، مما جعل الكتابة الإغريقية أسهل رسماً وقراءة، وهذا ما ساعد على انتشارها، وبالتالي انتشار الثقافة اليونانية مثلما انتشرت بعد ذلك الثقافة الرومانية إلى



درجة أن البحر الأبيض المتوسط قسم إلى حوضين ثقافيين، الحوض الشرقي تغطي عليه الثقافة الهيلينية، والحوض الغربي الذي عمته الثقافة اللاتينية حتى وإن لم يكن لروما دور مباشر في اكتشاف البحر الأبيض المتوسط، طالما أن كل ما قامت به هو الاستفادة من النتائج التي حققتها الرحلات البحرية الإيجية والفينيقية-القرطاجية والإغريقية.

3 - اكتشاف الطرق التجارية البحرية، أهمها طريق شرقي يربط فينيقيا (الساحل السوري الفلسطيني) بقبرص عبر مواني بيبيلوس وإلينا وتل سوكاس ورأس الباسيت، ثم الإبحار حول جزيرة قبرص للوصول إلى مواني أماثونت وكوريون وبافوس، وطريق غربي يبدأ من مصر في اتجاه سواحل الشمال الإغريقي يؤدي من جهة إلى صقلية الغربية ومن جهة أخرى إلى ليكسوس بالمغرب الأقصى وقادس بإسبانيا(63). زيادة على ذلك هناك طريق ينقل عبره قمح مصر إلى روما، يبدأ من الإسكندرية إما مروراً بسواحل الشمال الإفريقي أو عبر جنوب كريت، وطريق شمال البحر الإيجي عبر السواحل الإغريقية إما إلى ميناء كانخرياي (Kenchreai) بشرق كورنثا للوصول إلى خليج كورنثا، أو عبر ميناء لوخايون (Lechaion)، والطريق الذي يربط سوريا بإيطاليا عبر كريت(64).

4 - سيطرة الدولة القرطاجية على أهم الطرق البحرية الرابطة بين الحوضين الشرقي والغربي للبحر الأبيض المتوسط، وقيامها بدور الحارس لمنع أي إبحار بالمناطق التي تنتشر فيها مستوطناتها لا سيما بالشمال الإفريقي وسردينيا. وفي هذا السياق يذكر سترابون(65) أن القرطاجيين كانوا يغرقون أية سفينة يصادفونها مبحرة بمناطق نفوذهم، أو متجهة نحو جزيرة سردينيا أو نحو أعمدة هرقل.

5 - ظهور الصراعات التجارية بين روما وقرطاجية إثر تزايد الطموحات التجارية الرومانية، مما دفع قرطاجية إلى السعي وراء تأمين احتكارها للتجارة البحرية بالبحر الأبيض المتوسط. ولتحقيق ذلك ارتبطت مع روما بأربع معاهدات أبرمت في الفترة الممتدة منذ نهاية القرن السادس وحتى أواخر القرن الثالث في كل من سنة 508 ق.م و348 ق.م و306 ق.م و279 ق.م، حرم بموجبها الرومان وحلفائهم من الإبحار وراء رأس



سيدي علي المكي شمال غرب قرطاجة، كما حرم على تجار أية سفينة رومانية زجرتها العاصفة إلى المياه القرطاجية ممارسة عملية البيع والشراء وإجبارها على مغادرة المياه في غضون خمسة أيام، زيادة على منع الرومان من ممارسة النشاط التجاري وتأسيس المستوطنات بـسردينيا وشمال إفريقيا (66).

6 - تزايد الأطماع الاستعمارية، وإصرار كل دولة على تأسيس أكبر عدد ممكن من المستوطنات بنوعها التجارية والزراعية، وبالتالي تحول الصراع التجاري الذي شهدته البحر الأبيض المتوسط بين القرطاجيين الذين حلوا محل السوريين والإغريق ثم الرومان إلى صراع استعماري، وأصبحت كل قوة تسعى إلى بسط سيطرتها ونفوذها على المناطق التي كانت بحوزة الأخرى. وكان من الطبيعي أن يؤدي هذا الصراع إلى اصطدام عسكري تجلّى في الحروب البونية التي قضت على الدولة القرطاجية سنة 146 ق.م، ومكنت الرومان من السيطرة على البحر الأبيض المتوسط الذي اعتبروه بحراً رومانياً.

7 - يلاحظ المتتبع للتطورات المصاحبة لهذه الرحلات تلك التغيرات التي طرأت على الأهداف التي حددت لها. ففي البداية كان الهدف الرئيسي البحث عن الثروات التي تزخر بالثروات المعدنية والزراعية وعن الأسواق التجارية، وهذا ما يفسر ظهور المحطات التجارية. لكن سرعان ما تولدت رغبة الاستيطان بهذه المحطات التجارية وبالأماكن القريبة من مناجم الفضة والنحاس وبالأراضي الزراعية، مما دفع العناصر الفينيقية واليونانية إلى الهجرة من موطنها الأصلي تحت ضغط الظروف الاقتصادية والاجتماعية الصعبة إلى هذه المحطات والاستقرار للعيش فيها، وبالتالي تحول هذه المحطات إلى مستوطنات بقيت طيلة فترة طويلة مرتبطة بالدولة الأم دون أن تفقد استقلالها الذاتي وحاول اليونانيون والفينيقيون المحافظة على التوازن الذي أوجده التقسيم الإداري للمستوطنات، لكن الأمور لم تظل على حالها بعد ضعف الملاحة البحرية الفينيقية والتراجع الكبير الذي عرفته الملاحة البحرية اليونانية، هذا في الوقت الذي أصبحت فيه



قرطاجة دولة قوية تتزعم السيادة الاقتصادية والسياسية بالبحر الأبيض المتوسط، ومن جهة أخرى روما التي أصبحت بدورها تسعى إلى فرض سيطرتها على هذا البحر. وكانت النتيجة الحتمية لهذا الصراع ظهور مواجهة عسكرية قلبت موازين القوى، بحيث قضت على الدولة القرطاجية ومكنت الإمبراطورية الرومانية من التحكم في الثروات المادية والبشرية التي يكثر بها حوض البحر الأبيض المتوسط.

الهوامش:

- (1) G. Glotz, Histoire grecque, t. 1, 2e édition, Paris, Presses universitaires de France, 1988, p. 2. -
- (2) M. Cary, E. Warmington, Les Explorateurs de l'antiquité, trad. de A. et H. Collin-Delavaud, - Paris, Payot, 1932, p. 20-21.
- (3) Strabon, Géographie, III, 5, 11, éd. Amédée Tardieu, Paris, Hachette, 1880, 1888. -
- (4) Polybe, Histoire, XII, 2e éd. D. Rousset, Paris, Gallimard, 1970. -
- (5) V. Bérard, Les Phéniciens, tome 1, 1e édition, p. 567-568. -
- (6) M. Cary, E. Warmington, op. cit., p. 33. -
- (7) Homerus, L'Odyssée, XIX, 178-189, éd. Médéric Dufour, J. Raison, Paris, Garnier, 1937. -
- (8) G. Glotz, La Civilisation égéenne, nouvelle édition, Paris, Albin Michel, p. 233-246. -
- (9) Arthur Evans, Palace of Minos, t. 2. London, 1921-1936, p. 60. -
- (10) M. Cary, E. Warmington, op. cit., p. 26. -
- (11) Homerus, L'Odyssée, XIX, 178-189. -
- (12) Peet, The Stone and Bronze ages in Sicily and Italy, p. 490-491. -
- (13) J. Heurgon, Rome et la Méditerranée occidentale jusqu'aux guerres puniques, 2e éd. Paris, - Presses universitaires de France, 1980, p. 121.
- (14) Breasted, History of Egypt, p. 307. -
- (15) Hérodote, Histoires, II, 112, éd. Ph. E. Legrand, Paris, Les Belles Lettres, 1982. -
- (16) I Rois 9, 26-28; 10, 21-22; 22, 49 (La Bible de Jérusalem, Paris, éd. du Cerf, 1988). -
- (17) B.J. Deckert, Pount, Lexikon der Aegyptologie, t. 4, 8, 1982, col. 1198-1201. -
- (18) F. Decret, Carthage ou l'empire de la mer, 3e éd. Paris, Le Seuil, 1977, p. 41. -



- W. Albright, New Light on the early History of Phoenician colonisation, BASOR 83 (1941), p. – (19)
21-22.
- Hérodote, Histoires, I, 1, éd. Ph. E. Legrand, Paris, Les Belles Lettres, 1946, Homerus, – (20)
L'Odyssée, XV, 415-484.
- G. Glotz, Histoire grecque, t. 1, p. 145. – (21)
- F. Decret, op. cit., p. 35. – (22)
- G. Glotz, op. cit., p. 145. – (23)
- Diodore de Sicile, V, 12, éd. C. Muller, 1855. – (24)
- Strabon, XV, 1, 6. – (25)
- Ibid, III, 5, 5. – (26)
- Ibid, III, 5, 5; Pline, Histoire naturelle, XVI, 79; 3, collection des auteurs latins, éd. M.E. Littré, – (27)
Paris, 1848; Velleius Paterculus, 1, 2, 1, éd. P. Hainsselin, H. Watelet, Paris, Garnier, 1932.
- R. Dion, Le problèmes des Cassitérides, LATOMUS 11 (1952), p. 306-314. – (28)
- J. Heurgon, op. cit., p. 125. – (29)
- M. Sartre A. Tranoy, La Méditerranée antique, IVe siècle av. J.C.-IIIe siècle ap. J.C. Paris, – (30)
Armand Colin, 1990, p. 24.
- J. Mazel, Les Phéniciens, Paris, Laffont, 1967, p. 227. – (31)
- F. Decret, op. cit., p. 36. – (32)
- Thucydides, VI, 2, 6. – (33)
- F. Decret, op. cit., p. 36. – (34)
- M. Sartre, A. Tranoy, op. cit., p. 24. – (35)
- Diodore de Sicile, V, 20, 1. – (36)
- Herodote, I, 165-166. – (37)
- Festus Avienus, Ora maritima, 114-134; 406-415. – (38)
- Strabon, III, 5, 11. – (39)
- M. Cary, E. Warmington, op. cit., P. 51: – (40)
- S. Gsell, Histoire ancienne de l'Afrique du Nord, tome 1, 2e éd. Osnabrück, Otto Zeller Vertag, – (41)
1972, p. 494.
- Hérodote, IV, 196, éd. Ph. E. Legrand, Paris, Les Belles Lettres, 1945. – (42)
- Diodore de Sicile, V, 16. – (43)



- Hérodote, I, 165-166. – (44)
- M. Cary, E. Warmington, op. cit., p. 39. – (45)
- J. Bérard, La Colonisation grecque de l'Italie méridionale et de la Sicile dans l'antiquité, – (46)
l'histoire et la légende, p. 41.
- M. Cary, E. Warmington, op. cit., p. 37. – (47)
- G. Vallet, Rhegion et Zancle, Paris, 1958, p. 56, 57, n. 1. – (48)
- J. Heurgon, op. cit., p. 158. – (49)
- Ibid., p. 153-159. – (50)
- Hérodote, IV, 152. – (51)
- M. Cary, E. Warmington, op. cit., p. 37-38. – (52)
- Justin, Histoire philippique, XLIII, 3, 4, éd. M. Nisard, Paris, 1850. – (53)
- F. Villard, La Céramique grecque de Marseille, Paris, 1960, p. 36. – (54)
- J. Heurgon, op. cit., p. 182. – (55)
- Hérodote, IV, 42; IV, 157-158. – (56)
- Ibid, IV, 42. – (57)
- Vivien de Saint-Martin, Le Nord de l'Afrique dans l'antiquité grecque et romaine, Etudes – (58)
historiques et géographiques, Paris, 1863, p. 333; S. Gsell, Hérodote, textes relatifs à l'histoire de
l'Afrique du Nord, Alger, 1915, p. 225-237; M. Cary, E. Warmington, op. cit., p. 137.
- André Gil-Artagnan, L'Odyssée du Pount: Sur les traces du pharaon Nechao autour de – (59)
l'Afrique, ARCHAEOLOGIA no 282 (sept. 1992), p. 24-33.
- Hérodote, IV, 43. – (60)
- S. Gsell, Hérodote, p. 238. – (61)
- Strabon, Géographie, II, III, 4. – (62)
- C. Baurin, C. Bonnet, Les Phéniciens, marins des trois continents, Paris, Armand Colin, 1992, – (63)
p. 168-169.
- M. Sartre, A. Tranoy, op. cit., p. 126. – (64)
- Strabon, XVII, 1, 19. – (65)
- Polybe, III, 1, 22-25. – (66)